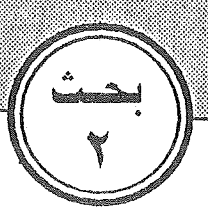


الجراجمة (المردة)

ودورهم في بلاد الشام حتى نهاية العصر الأموى

دكتور
صلاح الدين محمد نوار
مدرس التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
كلية الدراسات العربية والاسلامية
جامعة القاهره – فرع الفيوم

١٩٩٦

أولاً : الجراجمة أو المرده وظهورهم في بلاد الشام قبيل الفتح الإسلامي :

أ - الأصول العرقية والمذهبية للجراجمة أو المرده :

اختلفت المصادر الاسلامية وعلى رأسها كتاب فتوح البلدان للبلاذري والاغاني للأصفهاني، والمصادر المسيحية السريانية والبيزنطية والصليبية اختلافاً بيناً حول الأصول العرقية للجراجمة أو المرده والمناطق الأصلية التي أتوا منها ليستقروا فيما بعد في شمال الشام وأجزاء متفرقة من وسط الشام والساحل الشامي قبيل الفتوحات الاسلامية لبلاد الشام بقليل. كما اختلفت هذه المصادر أيضاً حول الاشتقاق اللغوي لكلمتي الجراجمة أو المردة عما إذا كانت من أصل فارسي أو عربي ، وحتى إذا كان الجراجمة أو المردة عنصراً واحداً أم أن كلاً منها يختلف عن الآخر، وجارتها في ذلك بعض المراجع الحديثة والتي أنكر بعضها كون الجراجمة شعباً أو جنساً واحداً[١] . بل أن أحد أقطاب وحفدة هؤلاء المردة، والذين عرفوا فيما بعد باسم الموارنة ثم تطور الاسم ليصبح المارونيين في العصر الحديث، ينكر تماماً وجود صلة بين الجراجمة والمردة وأنه ليس هناك وجه شبه بينهما وأن الجراجمة عنصر يختلف تماماً عن المردة في بلاد الشام[٢] .

والواقع أن هذا الاختلاف بين المصادر الاسلامية والمسيحية جعل الغموض يحيط بتاريخ هذه الفرق أو العناصر المسيحية التي قامت بدور خطير للغاية في الصراع الاسلامي البيزنطي في شمال الشام منذ العهد الأموي إلى نهاية العصر المملوكي خاصة وأن غالبية هذه المصادر لم تورد الا نصوصاً قليلة لاتكاد تشفي غليل الباحث حول طبيعة الدور الحقيقي لهؤلاء الجراجمة أو المردة بحيث يصعب على الباحث التوصل إلى الحقيقة الكاملة التي تنير له الطريق حول الدور الفعّال والمؤثر لهؤلاء في الصراع الاسلامي المسيحي في بلاد الشام وبصفة خاصة منذ الفتح الاسلامي إلى نهاية عصر دولتى المماليك .ففي حين تذكر المصادر الاسلامية وعلى رأسها كتاب فتوح البلدان للبلاذري أن الجراجمة أقوام من مدينة على جبل اللكام (الآمانوس وهو جبل يشرف على أنطاكية والمصيصة وطرسوس) [٣] بالثغر الشامي

---

(١) مثلاً : Adel Ismail, Histoire du Liban du XVII S a nos jours, Paris 1955, To. I, pp. 169. 170 Suiv

(٢) يوسف الدبس : ليس الجراجمة المرده، مقال مجلـه المشرق، السنة السادسة (ط. بيروت ١٩٠٣م) ص ٤٠٤ - ٤١٢ . وسنتعرض بالتحليل والنقد لمثل هذا الرأى في موضعه من هذه الدراسة .

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ط. اوربا، ج٤ ص ٣٦٤ ويذكر المقدسي ان هذا الجبل هو اكثر المناطق الجبلية شهرة في سوريا ،ويتميز بمساحته الشاهقة وهو كثير الفواكه. المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط. اوربا ص ١٨٨ . ويشير أن هذا الجبل حتى العصر الذي عاش فيه (٣٧٥ هـ / ٩٨٥م) كان في أيدي الأرمن . وهذه اشارة لها مغزي هام حول الاصول العرقية للجراجمة. راجع المقدسي : نفس المصدر والصفحة كذلك :
Le Strange, palestine under the Moslems, Beirut 1965, pp : 81 - 82

عند معدن الزاج فيما بين بياس[١] وبوقة[٢] ، يقال لها الجرجُومة[٣] واليها ينسبون، وأن أمرهم كان في أيام استيلاء الروم على الشام وأنطاكية إلى بطريرك انطاكية وواليها[٤] . ويوضح هذا النص أن المركز الرئيسي لهؤلاء الجراجمة أو المردة هى مدينة الجرجومة الواقعة في جبل اللكام وكانت تابعة لاقليم انطاكية في العصر البيزنطي أى في الفترات السابقة للفتح الإسلامي لبلاد الشام. وعلى الرغم من أن النص لم يوضح الأصول العرقية لهذه العناصر الا أنه ذكر أنهم عناصر مسيحية تتبع من الناحية المذهبية بطريركية أنطاكية . وفي تاج العروس للزبيدي يذكر أن الجراجمة قوم من العجم بالجزيرة[٥] ،وفي نسخة اخرى إنهم من العرب وفي حديث وهب بن منبه : قال طالوت لداود انت رجل جرىء وفي جبالنا هذه جراجمة يختربون الناس أو لصوص يستلبون الناس وينهبونهم. أو أنهم من نبط الشام، ومنه قول ابن وجزه : لو أن جمع الروم والجراجما[٦] .

ويذكر صالح بن يحي في روايه أن الجراجمة أو المرده قوم من نصارى العجم، استقدمهم ملوك القسطنطينية للدفاع عن لبنان وقيلقية من غزوات العرب. وأن أصل تسميتهم المرده من الكلمة الفارسية مرد أى الشجاع، ويضيف في نفس الرواية أن معاوية بن أبي سفيان استجلبهم من فارس حيث أسكنهم بيروت، وجرت بينهم وبين الأمراء الأرسلانيين والتنوخيين عدة وقائع استمرت حتى قيام عبد الملك بن مروان بمهادنة أو مسالمة البيزنطيين واعادتهم إلى مواطنهم الأولى[٧] .

أما المصادر المسيحية التي تعرضت للجراجمة فقد أشارت إليهم مرة باسم المردة وأخرى باسم الموارنة أو المارونيين . فوليم الصوري يشير اليهم أنهم جنس من النصارى السوريين

---

(١) بياس : تقع في الزاوية الشمالية من خليج الاسكندرونه على مسافة نحو عشرين كيلومتراً من مدينة الاسكندرونه نحو الشمال وهى ملاصقة لجبل اللكام. ياقوت الحموى : معجم البلدان، ج١ ص ٧٧٢ . ايضاً :
Le Strange, palestine, p. 422 .

(٢) بوقا أو بوقه : هى شغر بوقه اليوم على العاصي بجوار جسر الشغور وبالتحديد جنوب شرق انطاكيه .

(٣) يلاحظ في نص ياقوت الحموي الطبعة الأوربية أن كلمة جرجومه كتبت بضم الجيم الأولى (جُرجُومه) . وهو خطأ واضح لأن وزن التكبير " فعالله " لاياتي مضموم الأول اطلاقاً وهذا يتعارض مع ما جاء في القاموس المحيط (الطبعة المصرية) الذي يذكر ان الجُرجُومه بضم الجيمين (كما ضبطها ياقوت) من الجُرجُوم بالضم أى المُصغر.

(٤) البلاذري :فتوح البلدان، نشر د. صلاح الدين المنجد، القسم الأول، القاهره ١٩٥٦م، ص ١٨٩، وراجع نفس النص في ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ص ٥٥ .

(٥) ربما يقصد الزبيدي بذلك الجزيرة الفراتية . وفي القاموس المحيط ، الطبعة المصرية، انهم قوم من عجم الجزيرة أو نبط الشام .

(٦) الزبيدي : تاج العروس .

(٧) صالح بن يحي : تاريخ بيروت، نشر لويس شيخو، ط. بيروت ١٩٢١، ص ١٧ ح٥، ٨ .

(أو نصارى الشام) كانوا يعيشون في اقليم فينيقيا قرب مرتفعات لبنان الشاهقة، ووصفهم بالهرطقة والالحاد لأنهم كانوا يعتنقون في البداية المذهب المونوفيزيتي (أي مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح) الذي علمهم اياه رجل يسمى مارون ومنه أخذوا اسم المارونيين أو الموارنة[1]. ولعله يقصد بذلك القديس مار مارون الذي عاش في شمال سوريا في المنطقة الواقعة بين أنطاكية وقورس ولعب دوراً كبيراً في اعتناق هذه الجماعات المسيحية على المذهب المونوفيزيتي وتوفي فيما يقرب من عام ٤١٠م[2].

أما بالنسبة للمصادر البيزنطية ويمثلها تاريخ ثيوفانيس فهو أول من أطلق عليهم اسم المرده عندما ذكر في تأريخه للأحداث التي جرت في عهد الامبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع (الملك اللحياني) أنه في السنة الثامنه والتاسعة لقنسطنطين أى سنوات ٥٨ - ٥٩هـ / ٦٧٧ - ٦٧٨م دخل المرده لبنان وفتحوا جميع البلاد من جبل اللكام (وفي الأصل البيزنطي جبل موروس أو الجبل الاسود وهو اسمه الجديد) إلى بيت المقدس واستحوذوا أيضاً على مشارف لبنان وانضم إليهم أناس كثيرون من العبيد والاسرى ومن سكان البلاد حتى أنهم في برهه من الزمن بلغوا ألوفاً كثيرة[3].

ويتفق هذا النص البيزنطي أو يتشابه إلى حد كبير مع المصادر السريانية التي تعرضت لهذه العناصر المسيحية، فيذكر ميخائيل السرياني (١١٢٦ - ١١٩٩م / ٥٢٠ - ٥٩٦ هـ) في نص له نقله من كلام ديونيسوس التلمحري (ت ٨٤٥م / ٢٣١ هـ) والمعاصر تقريباً لثيوفانيس (ت٨١٧م / ٢٠٣ هـ) "أنه في السنة التاسعة لقسطنطين (الرابع) أتى روم جبل لبنان، كانوا يسمونهم مرده أو ليبهورا، وأهالي سوريا كانوا يسمونهم أو يدعونهم جراجمة احتلوا البلاد من جبال الجليل حتى الجبل الأسود (جبل الآمانوس أو اللكام) وكانوا ينطلقون باستمرار ويشنون الغارات، لأن الروم أرسلوهم لهذه الغاية "[4] ويتفق هذا النص أيضاً مع نص لابن

---

(1) william of tyre, A History of the deeds done beyond the sea, Trans & pub. by babcock & krey, New York 1943, vol. II , p. 458

(٢) يؤكد هذا المسعودي في روايته الفريده عن هذه الجماعات النصرانية المسعودي. كتاب التنبيه والاشراف، نشر (دي غوية) ط. ليدن بريل ١٨٩٣ ص ١٥٣ .

(3) Theophanes, The chronicle of Theophanes, trans. by Harry Turtledove, university of pennsy Lvania 1982, pp. 53 - 54 .

ويرى أحد المؤرخين المحدثين ان المرده انتشروا واستقروا في المنطقة الواقعة بين جبل كسروان وسهل البقاع. عمر فروخ : تاريخ صدر الاسلام والدولة الاموية، بيروت ١٩٧٢ ص ١٤٦.

(4) Michiel Le Syrien, chronique du michiel Le syriene, Text syrique, trad. par chabot, paris 1903, To. II , P 455 .

العبري في تاريخه السرياني الذي يذكر أن " قوماً من الروم غزاه مردة أى من الكماة وكان أهل سوريا يسمونهم جراجمة أى أبطالاً ضبطوا البلاد من جبل الجليل إلى الجبل الأسود (اللكام) وكل جبل لبنان، وكابد العرب منهم كثيراً، وفي الآخر تغلب عليهم العرب فقتلوا بعضاً منهم وسملوا عيون آخرين" [١] .

وهذه النصوص السريانية تتفق في جزء منها مع رواية البلاذري القائلة بأنه في أوائل العهد الأموي " خرجت خيل الروم إلى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم، ثم صارت إلى لبنان وقد ضوت اليها جماعة كثيرة من الجراجمة (أى المرده أو الموارنة) وأنباط وعبيد آباق من عبيد المسلمين" [٢] .

ولدينا نص سرياني آخر نشره البطريرك رحماني سنة ١٩٠٤م لمؤرخ سرياني مجهول وضع مؤلفه في القرن ١٢م / ٦ هـ جاء فيه " وفي السنة التاسعة من ملك قسطنطين الرابع(اللحياني) (أى عام ٥٩هـ / ٦٧٨م) أتت جماعة من الروم بالسفن لشواطىء بحر صور وصيدا وصعدت الى جبل لبنان واسم هؤلاء الناس المرده[٣] . واستحوذوا على البلاد من جبل الجليل إلى جبل اللكام وكانوا يخرجون بأمان للسبي والاجتياح في أراضي العرب، وأن عدد هؤلاء المرده في جبل لبنان كان يقدر باثني عشر الفاً عدا المنضمين اليهم من العبيد المتمردين" [٤] .

وهذه النصوص السريانية تؤكد وتوضح أن الجراجمة أو المردة في الأصل كانوا أقواماً محاربين من الروم اختلطوا مع أقوام من أمم شتى وأديان مختلفة لاجامع لهم سوى عمليات السلب والنهب وشن الغارات على المناطق المجاورة وتجنسوا بالجنسية الرومية، وكذلك كان رؤساؤهم وقادتهم وأغلب فرسانهم، وقد تسللوا إلى بلاد الشام مع بداية الفتوحات الاسلامية لصد الغارات التي كان يشنها المسلمون على الحدود البيزنطية القريبة من مراكزهم في جبل اللكام، ثم انضم اليهم جموع غفيرة من السكان المقيمين المعروفين بالشغب والتمرد على حكام هذه المناطق بجانب عناصر من الأنباط والأسرى وعبيد آباق من عبيد المسلمين من سكان قرية الجرجومة فأطلق على هؤلاء جميعاً الجراجمة من باب تسمية الكل باسم الجزء . وأن الجراجمة أو المردة

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ط. الآب بيدجان، ص ١٠٩ . كما ورد بالسريانية في مجلة المشرق، ط. بيروت ١٩٠٣، ج٦ ص ٣٠١ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ق١ ص ١٨٩ .

(٣) يلاحظ ان هذا النص يرجح أن المرده غير الجراجمة .

(4) Chronique Civile at ecelestiasticum Anonymi Auctoris edidit par Rahmani (E.) Sharfe,' Liban 1904, pp. 185, 188.

قبل أن يتسللوا إلى بلاد الشام كانوا يسكنون بعض ولايات آسيا الصغرى التي عادوا اليها بعد غاراتهم على شمال الشام .

ويرى أحد الكتاب المحدثين أن المرده أو الموارنة كانوا في الأصل مجموعة زمر آرامية لم تحتك بأية عناصر خاصة الروم، وظلوا محتفظين بأصلهم الآرامي طيلة عصور التاريخ، وأنهم تمركزوا بصفة خاصة بالقرب من أفامية في جهات دير مارون ومنه اتخذوا اسمهم[1] ، واستند في رأيه على رواية البلاذري التي أشارت إلى أن جماعات كثيرة من الجراجمة والأنباط وعبيد آباق قد ضووا إلى الروم أثناء غاراتهم على شمال الشام أوائل العهد الأموى، وأن البلاذري أراد بذلك الموارنة أو المرده فدعاهم في النص باسم الأنباط وهذا دلاله على أصلهم الآرامي[2] .

على أن وجهه النظر هذه من قبل هذا الكاتب الماروني غير مقبولة اذ أنها تعتمد على اجتهاد وترجيح لاتعتمد على أدلة أو أسانيد منطقية قوية كما أن النص الذي اعتمد عليه في تأييد وجهه نظره غير كاف أو مقنع لتأكيد آرامية المرده أو الجراجمة، وحتى نصوص المصادر الصليبية والبيزنطية والسريانية ومعها المصادر العربية حول الأصول العرقية لهذه العناصر تتسم بالغموض والتضارب والاختلاف البين بحيث يجعل من الصعب على الباحث أن يتوصل إلى حسم مسألة الأصول العرقية لهؤلاء الأقوام .

والمتأمل لنصوص المصادر العربية والبيزنطية والسريانية والصليبية قد يعتقد لأول وهلة أن الجراجمة عنصر يختلف عن المردة أو الموارنة. أو أن الجراجمة ليسوا هم المرده أو الموارنة كما زعم بذلك بعض المؤرخين المحدثين[3] .الا أن القارىء لنصوص المصادر السابقة التي تعرضت لهذه العناصر والمناطق التي ظهروا بها واستقروا فيها في الفترة السابقة للفتوحات الاسلامية وبالتحديد في منطقة جنوب آسيا الصغري وجبال اللكام ثم تسللهم لتستقر جماعات منهم في مناطق

---

(١) هنري لامنس : تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار ، مجله المشرق (ط. بيروت عام ١٩٠٣م) ، السنة السادسة، ص ١٣١ . ويؤيد هذا الرأى عمر فروخ:تاريخ صدر الاسلام والدوله الاموية، ط. بيروت ١٩٧٢م، ص ١٤٦ معتمداً على مصادر لم يذكرها .

(٢) هنري لامنس : تسريح الأبصار، مجلة المشرق، السنة السادسة ص ١٣٣ .

(٣) مثل الدكتور عادل اسماعيل ويوسف الدبس اللذان ينكران كون المرده والجراجمة عنصراً واحداً. راجع يوسف الدبس : ليس الجراجمة المرده، مجلة المشرق (ط. بيروت ١٩٠٣) السنة السادسة ص ٤٠٥، ٤٠٦ ، كذلك Adel Ismail , Histoire, p. 169 معتمدين على أدلة وشواهد غير كافية للتدليل أو تاكيد وجهتي نظرهما .

متفرقة في بلاد الشام. كما أن القارىء لنصوص المصادر التي تناولت دورهم في الصراع الاسلامي المسيحي في معظم فترات التاريخ الاسلامي إلى نهاية العصر المملوكي، يدرك أن كل من الجراجمة والمرده أو الموارنة أقوام وعناصر واحدة، وأوضح المؤرخ السرياني ديونيسوس التلمحري ومعه ميخائيل السرياني اللحمة ووحده المدلول بين لفظتي الجراجمة والمرده وعلى أساس أن أهل سوريا القدماء والعرب فيما بعد عرفوا هؤلاء الأقوام باسم الجراجمة وهو لفظ سرياني بمعنى الرجال الأشداء أو الابطال أطلقه عليهم السوريون القدماء ثم جاء العرب وأطلقوا عليهم نفس الاسم أو اسماً آخر[1] ،ثم اطلق عليهم مسميات اخرى مختلفة من قبل الروم الذين اسموهم المرده كما يتضح في الرواية البيزنطية[2] ، ثم الموارنة أو المارونيين كما يتضح في المصادر الصليبية القديمة[3] والمراجع الصليبية الحديثة[4] وذلك طبقاً للبيئة او المكان الذي عاشوا أو استقروا فيه سواء في آسيا الصغري أو منطقة جبل اللكام أو في بلاد الشام فيما بعد وبالتحديد عند مناطق الحدود أو الثغور الاسلامية البيزنطية .

ويؤكد وجهه النظر القائلة بأن الجراجمة والمرده أقوام أو عناصر واحدة اتخذت أسماء مختلفة حسب البيئة التي وجدوا فيها والعصور التاريخية السابقة للفتح الاسلامي لآسيا الصغرى وبلاد الشام وبعد هذا الفتح، ماذكره صاحب الكتاب الأغاني في نص فريد له أشار فيه إلى أن الجراجمة أو المرده يسمون في عصره (أى عصر الاصفهاني) بني الأحرار[5] بصنعاء والذين عناهم أميه بن أبي الصلت في شعره وهم الفرس الذين أرسلوا ليقاتلوا مع سيف بن ذي يزن ، ويسمون باليمن الأبناء[6] ، وبالكوفة الأحامرة[7] ، وبالبصرة الأساورة[8] وبالجزيرة

---

(١) سوف نعرض لهذا الأمر عند تناول الأصل اللغوى لمسمى هذه العناصر .

(2) Theophanes, chronicle , p. 53.

(3) william of Tyre, Deeds, vol. II, p. 458

(4) Rohricht (R.), Geschichte Konigreichs jerusalem, Innsbruck 1898, p. 220 f6.

(٥) عرفوا بهذا الاسم ربما لميلهم الى الاستقلال وعدم الخضوع للسلطة الحاكمة .

(٦) كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد ارسل اليهم وبر بن يحنس يدعو هؤلاء الأبناء إلى الاسلام.راجع خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق سهيل زكار، ط. دمشق ١٩٦٨، القسم الأول، ص ٧٤. ونجد ذكر لهؤلاء الأبناء في افريقية في عهد هارون الرشيد. خليفة بن خياط : تاريخه ، ق٢ ص ٧٤٨ .

(٧) ربما عرفوا بالأحامرة لشقرتهم .

(٨) كان هناك أساوره في الكوفة كما يذكر البلاذري. فتوح، ق١ ص ١٣٩ .وربما عرفوا بذلك لبراعتهم في رمى السهام واستعمال مختلف أنواع الأسلحة.وفى المعجم الوجيز: اساوره جمع أسوار ومعناها الفارس والقائد في الجيش راجع المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية، ط. مصر ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠م ، ص ١٨ .

(ربما يقصد الجزيرة الفراتية شمال العراق) الخضارمة وبالشام الجراجمة[1] . وهذه الأدله والشواهد من نصوص المصادر الاسلامية والمسيحية يدحض الرأى الذي ذهب اليه أحد أقطاب الموارنه وزعماءهم في العصر الحديث من أن الجراجمة ليسوا هم المرده أو الموارنه معتمداً في وجهه نظره على اجتهادات وترجيحات ليس لها أيه أسانيد منطقية أو استدلالات تاريخية قوية[2] .

ويلاحظ أنه على الرغم من أن المصادر الاسلامية والصليبية والبيزنطية والسريانية لم تكن قاطعة في رواياتها حول الأصول العرقية لهؤلاء الجراجمة أو المرده ، وتميزت بالاضطراب ، وعلى الرغم من أن بعض أقطاب الموارنه أو المارونيين من الكتاب المحدثين أكدوا على أن الجراجمة أو المرده أقوام فارسية الأصل كانت تقيم في المناطق المتاخمة لشواطىء بحر قزوين وجنوبي فارس وفي المنطقة الواقعة بين جيلان وطبرستان وذلك منذ الألف الثالث قبل الميلاد وقبل أن تهاجر فيما بعد إلى العراق وجنوبي آسيا الصغري وبلاد الشام، واستقرت عشائر منها في منطقة جبل اللكام، واعتنقت المسيحية في القرن الرابع والخامس الميلاديين، وأنهم كانوا مجموعة من الصعاليك عاشوا على الغارات والنهب والسلب للمناطق المحيطة بجبال اللكام، وعلى أساس أنه أطلق عليهم اسم " مردان " أى الأبطال الشجعان المحاربون ثم صرفت لتصبح مرده وهى كلمة فارسية الأصل لاحظ لها من الاشتقاق العربي أو الآرامي معناها في الفارسية الرجال الأشداء الأقوياء في الحروب[3] .

وعلى الرغم من أن البعض يؤكد على فارسية هذه العناصر المسيحية اعتماداً على نص للمؤرخ العربي البلاذري الذي يذكر ضمن حوادث سنة ٤٢ هـ / ٦٢٢م ويشير فيه إلي قيام معاوية ابن أبي سفيان بنقل جماعات من بعلبك وحمص وأساوره البصرة والكوفة في هذه السنة أو قبلها وأقرهم في أنطاكية والمناطق المجاورة لها، وهذا ربما يشير إلى أن هؤلاء الفرس هم الجراجمة أو المرده[4] ، وعلى الرغم من أن البلاذري لم يذكر اسم الجراجمة أو المرده في هذا الموضع من كتابه، الا أن مثل هذه الآراء لاتمثل أدله كافيه على تأكيد الأصول الفارسية لهذه الجماعات، ولذلك- واعتماداً على نصوص المصادر الاسلامية والبيزنطية والسريانية والصليبية التي تعرضت لتاريخ هذه العناصر-فنحن نرجح أن الجراجمة أو المرده قوم من العجم ربما كانوا فرساً أو روماً أو من الأ.. ن أقاموا في شعب ودروب جبال اللكام الشاهقة المطله على أنطاكيه والتي تتميز بوعورتها وحصانتها الطبيعية، وأتخذوا من الجرجومة،وهو اسم لمكان أو مدينة يقع في قلب هذه الجبال،

---

(١) راجع هذا النص في الأصفهاني :الأغاني، ط . بولاق، مجلد ١٦ ص ٧٣ .

(٢) هو رأى يوسف الدبس : ليس الجراجمة الردة، مجلة المشرق، السنة ٦ ، ص ٤٠٤ - ٤١٢

(٣) هذا هو رأى انستاس ماري الكرملي : المرده أو الجراجمة، مجلة المشرق، السنة السادسة (بيروت ١٩٠٣م) ص ٣٠٣ - ٣٠٥

(٤) البلاذري : فتوح، ق١ ص ١٣٩ ، ١٧٥ .

مركزاً لهم أقاموا فيه ومنه كانوا ينطلقون لشن غاراتهم على الحدود البيزنطية الاسلامية. كما انتشروا أيضاً في المناطق القريبة والبعيده عن تلك الجبال داخل آسيا الصغرى أو بلاد أرمينيا أى بالقرب من الحدود الاسلامية البيزنطية، ولذلك كانوا بحكم موقعهم هذا ومناعة جبالهم ووعورة مسالكها وشدة بأسهم، كانوا يميلون إلى الاستقلال أو الانفصال عن العرب والبيزنطيين ، وفي نفس الوقت يحققون أهدافهم على حساب هاتين القوتين، وهو الأمر الذي أكدته المصادر الاسلامية والبيزنطية نفسها فيما بعد عندما أشارت إلى حرص العرب بصفه خاصة على استمالة هؤلاء المردة الجراجمة وتشجيعهم لشن الغارات السريعة والخاطفة على حدود الدولة البيزنطية، مع ما عرفه العرب عنهم من هجماتهم الخاطفه وسرعتهم في التحرك والانقضاض، لدرجة أنه كان يضرب بهم المثل في المصادر البيزنطية فيقال عند وصف رجل أو عسكر بسرعة الانقضاض والهجوم " مثل المردة " [1] ، وتأكد هذا الأمر في ذلك الصلح أو تلك المعاهدة التي عقدها العرب مع الروم في بداية الفتح الاسلامي لبلاد الشام[2] ، وهو ما سنتحدث عنه في موضعه من هذه الدراسة .

ويلاحظ أن أعداد من هذه العناصر قد تسللت فيما بعد من مراكزها في جبل اللكام إلى بلاد الشام لكى تجد فيها مستقراً ومقاماً ، فانتشروا في وادي نهر العاصي على مقربة من أفامية ومعرة النعمان وفي شيزر وحماه وحمص كما يظهر من نص للمسعودي ورد في كتابه التنبيه والاشراف[3]. والمرجح أيضاً أن بقايا منهم طبقاً لماذكره ابن العبري وابن البطريق وغيرهما قد استقرت في منبج وقنسرين والمناطق المعروفه بالعواصم وكذلك في أنطاكيه وجوارها لأن انطاكيه كانت بمثابة حاضرة لهذه المناطق ولقربها من جبل اللكام وآسيا الصغري. ويؤكد هذا المؤرخ الصليبي وليم الصوري الذي يشير إلى وجود هؤلاء الموارنه أو المارونيين في كل من جبيل وطرابلس

---

(1) Cedrenus (G.) , Historiarum compendium, in P. C. C. S. G. (Paris 1864 - 1894), To I, p. 790; Theophanes Continutus, Historia, in P. C. C. S. G., ed. Bonnae (Paris 1863), p. 610 .

وهكذا وصفهم المؤرخ الفرنسي رامبو .

Rambaud, Les Maradaites, Paris, pp. 222-223

(٢) راجع البلاذري : فتوح، ق١ ص ١٨٩ .

(٣) المسعودي :التنبيه والاشراف ،ط. ليدن (مطبعة بريل) ١٣١١ هـ/ ١٨٩٣م، ص ١٥٣. ويشير اليهم باسم الطائفة المارونية وأن أمرهم مشهور بالشام، ايضاً راجع لامنسي: تستريح الأبصار، مجلة المشرق، السنة ٦ ص ١٣١ .

على حساب الطرفين الاسلامي والبيزنطي في العصرين الأموى والعباسي أو على حساب الطرفين الاسلامي والصليبي في فترة عصر الحروب الصليبية في الشرق الاسلامي[١] . وعلى الرغم من أن الحكومات الاسلامية المتعاقبة على بلاد الشام قد أكسبتهم وضعاً معترفاً به ومنحتهم امتيازات كأهل ذمه، طبقاً لما ذكرته المصادر الاسلامية[٢] ، الا أن المصادر البيزنطية والصليبية تؤكد نفاق هذه الجماعات النصرانية عندما أشارت في مناسبات كثيرة إلى أنهم كانوا يمالئون أعداء الاسلام سواء كانوا روماً أم صليبيين[٣] .

وربما أن هذه اللفظه مشتقة من الفعل تمرد أي عصى وخلع الطاعة في عناد واصرار[٤] ، وذلك بما عرف عن هذه الجماعات من رفضهم للخضوع لسيطرة الدول الاسلامية التي قامت في بلاد الشام منذ الفتح الاسلامي الى نهاية العصر المملوكي وقيامهم بعديد من الاضطرابات وحركات العصيان ضد الحكومات الاسلامية، ونزوعهم الدائم إلى الحرية والاستقلال بما تفرضه عليهم البيئة الجبلية التي عاشوا فيها . ويؤكد على هذا الأمر المؤرخ البلاذري عندما يذكر أن "الجراجمة (أى المرده) كانوا يستقيمون للولاه مره ويعوجون أخرى فيكابتون الروم ويمالئونهم"[٥] . ويؤكد هذا أيضاً الرأى أو التفسير الذي ذكره قطب من أقطاب المارونيين وأحد حفدة هؤلاء المرده في العصر الحديث، الذي يذكر أن التفسير القائل بأن المرده لفظه فارسية أو أنها لفظة يونانية أخذها السوريون من اليونان انما مخالف للظاهر ولايستند على أدله أو شواهد أو حتى استدلالات منطقية لأن المرده سوريون وسريان وأسمهم الجراجمة يطابق السريانية، واسم المرده انما هو تسمية عربية تدل على تمردهم وعصيانهم ضد الحكومات الاسلامية التي تعاقبت على بلاد الشام، ولاسبيل لليونان أو الفرس لتسميتهم بهذا الاسم السرياني (الجراجمة) أو العربي (المرده) . والقول بأنهم سموهم كذلك تشبهاً بالمرد وهى عناصر كانت موجوده في القرن التاسع قبل الميلاد نوع من الخرافه[٦] . وهذا الرأى من قبل هذا الكاتب والمؤرخ النصراني الماروني بجانب ما سقناه من قبل اعتماداً على نصوص المصادر الاسلامية والأحداث التاريخية

---

(1) Theophanes, chronicle, pp. 53 - 54, 61 - 63 , William of Tyre, deeds, vol. II, P. 454 .

(٢) راجع مثلاً : البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٨٩ ، ١٩٢ .

(3) Theophanes , chronicle, pp. 61 - 63, William of Tyre, deeds, vol. II, p 459 .

(٤) المعجم الوجيز ، ص ٥٧٧ .

(٥) البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٨١ .

(٦) هذا هو راي يوسف الدبس : ليس الجراجمة المرده، مقال مجلة المشرق (السنة ٦) ص ٤٠٨ . ويرى احد المؤرخين المحدثين ان اسم المرده لايعرف وجه اشتقاقه الصحيح، ولعله مشتق من اصل آرامي يعني التمرد او الانشقاق عمر فروخ : تاريخ صدر الاسلام ، ص ١٤٦ معتمداً على مصادر ومراجع لم يذكرها .

يدحض كل الآراء التي ذكرها بقية الكتاب والمؤرخين الموارنه المارونيين أن تسمية المرده ذات أصل فارسي مدعين بوجود أصول فارسية للمرده، أو انها لفظه سامية الأصل دخلت اللغه الفارسية أو انها ذات أصل يوناني.

وربما أن هذه التسمية أطلقها عليهم العرب المسلمون وان لم تشر المصادر الاسلامية اليها على نحو صريح اشتقاقاً من كلمة المارد أى العملاق وجمعها مرده بما هو معروف عن هذه العناصر من ضخامة أجسامهم وقسوتهم نتيجة لمعيشتهم في تلك المناطق الجبلية التي تفصل الثغور الاسلامية عن الثغور البيزنطية. ويؤكد صدق هذه المعلومة ما ذكره الكلبي عن " علوج سوريا يدعون الجراجمة " [١] . والعلج في اللغة كل جاف شديد من الرجال أو هو الرجل الضخم القوى من كفار العجم وهى تسمية تطلق على الكافر عموماً وجمعها علوج وأعلاج [٢] ، ويرجح أن هذه اللفظه العربية قد دخلت ضمن اللغه الفارسية فيما بعد مع اختلاط العرب بالفرس، مما جعل الكتاب يعتقدون أنها لفظه فارسيه وليست عربية ، خاصة وأن معناها في القاموس الفارسي يعطى نفس المعنى بالعربية فتعني عاصي متكبر ومفردها مارد [٣] ، وربما كلمة المرده هذه التي أطلقها العرب تعني الشياطين وقصد العرب بها بذلك هذه العناصر النصرانية بسبب غاراتهم السريعة الخاطفة وسرعتهم في التحرك والفرار والعوده إلى الممرات والدروب التي عاشوا فيها في جبل اللكام، ويؤكد هذا التصور من أن كلمة مرده عربية الأصل أطلقها العرب على هذه الجماعات في معظم فترات التاريخ الاسلامي وليست فارسية الأصل أن صاحب كتاب " أخبار الأعيان في جبل لبنان " عندما تعرض لذكر الأرسلانيين والتنوخيين في لبنان اعتمد في ذلك على وثائق محفوظه لدى الأمراء الأرسلانيين في العصر الحديث وموروثه خلفاً عن سلف ومثبته عصراً فعصراً وذلك منذ سنة ١٤٢ هـ/ ٧٦٠م [٤] . وجاء في هذه الوثائق أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور أرسل سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٨م من بلاد المعره الأمير المنذر بن مالك وأخاه الأمير أرسلان بعشيرتهما إلى جبال بيروت لمقاومه " مردة لبنان وصد غزواتهم " ، فانتقل الأميران المذكوران مع سائر امراء عشيرتهم إلى جبال بيروت الخالية " وأخذوا يغزون المردة ويحافظون على أبناء السبيل" . وكان الخليفة قد بلغه قوة مرده لبنان ومنعهم أبناء السبيل من المرور في الطرقات المجاورة وإن غزواتهم قد اتصلت إلى بلاد حماه وحمص وغيرها " [٥] . ويرى أحد المؤرخين

---

(١) ابن الفقيه : كتاب البلدان، ط. ليدن (بريل) ١٣٠٢ هـ/ ١٨٨٤م ، ص ٢٠ ، ٣٥

(٢) المعجم الوجيز ، ص ٤٣٠ .

(٣) سرهنك عميد، ص ٩٤٢ .

(٤) طنوس الشدياق : أخبار الأعيان في جبل لبنان ، نشر د. فؤاد افرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧١م ، ج٢ ص ٥٢٨ .

(٥) طنوس الشدياق : أخبار الأعيان ، ج٢ ص ٤٩٥ - ٥٠٩ .

المحدثين أن اسم المرده لايعرف وجه اشتقاقه الصحيح ولعله مشتق من أصول آرامية معناه التمرد أو الانشقاق، وربما كان هؤلاء على مذهب ديني يخالف مذهب أهل جبل لبنان وقتذاك[1].

ونخلص مما سبق أن المرده والجراجمة والموارنه أسماء لأقوام أو عناصر واحده : فالموارنه أو المارونيين هو الاسم الديني الدال على مذهب القوم وأكد هذا المسعودي في نص له في التنبيه والاشراف [2] والاسم جراجمه اسم جغرافي يشير إلى هؤلاء في جبل اللكام وربما هو اسم سرياني يعني الأبطال أطلقه السوريون أو السريان ثم اقتبسه العرب مع بدايه الفتوحات الاسلامية لهذه المناطق من شمال الشام. والاسم : مرده ، يعتقد أنه لفظه عربية أطلقها العرب فيما بعد مع بدايه قام الدوله الأمويه حتى نهايه العصر المملوكي نظراً لنزوع هذه العناصر إلى الاستقلال ورفع راية العصيان ضد المسلمين ورفضهم الانصياع للسياده الاسلامية وبما جبلوا عليه من النفاق والخيانه بكل من المسلمين والبيزنطيين في القرون الخمس الأولى من العصر الاسلامي في بلاد الشام حتى مجيىء الحملات الصليبية آواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ليقوموا بدور الطابور الخامس للصليبيين ضد المسلمين في الشرق الأدنى الاسلامي وهو الأمر الذي أكدته المصادر الصليبية والسريانية المعاصرة لتلك الحقبه[3] ، قبل أن تذكرها المصادر الاسلامية ، وكذلك كتابات أقطاب المارونيين في بلاد الشام في العصر الحديث .

ويمكن القول أيضاً أن الجراجمة أصبح اسماً لأولئك الأقوام ولايراد به فقط أهل الجرجومه معقل الجراجمه في اللكام، بل يراد به الجراجمه في مناطق أخرى إذ نرى الجراجمه أيضاً في انطاكيه كما ذكر البلاذري[4] .

ثانياً : الجراجمه المرده منذ الفتح الاسلامي لبلاد الشام إلى نهايه الخلافه الراشده :

على الرغم من نجاح الجيوش الاسلامية في إجتياح بلاد الشام خلال العقدين الأول والثاني من القرن الأول الهجري (أوائل القرن السابع الميلادي) فقد بقيت في بلاد الشام مناطق

---

(١) عمر فروخ : تاريخ الاسلام والدولة الأموية، ط بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٤٦ .

(٢) المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ١٥٤، اطلق عليهم المسعودي اسم المارونيين نسبة إلى مارون وهو احد رهبانهم الكبار من مدينة حماه أحد أعمال حمص، المسعودي : المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

(٣) راجع مثلاً :

William of Tyre, deeds, vol. II, p. 459

(٤) البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٩١ .

لم تصل اليها جيوش الاسلام وتتمثل في المناطق الجبلية في أقصي شمال الشام القريبة من أنطاكيه وحلب مثل سلسلة جبال اللكام العاتيه حيث توقفت جيوشهم وفتوحاتهم اسفل هذا الجبل وربما أن العرب قد تحاشوا هذه الجبال وارجأوها إلى مرحله تاليه حتى يتم لهم استكمال بقية فتوحات آسيا الصغرى باعتبارهم قبائل صحراويه تمرست في معارك الصحاري والسهول، وكان الجراجمه يعيشون في هذه الممرات التي تصل بين سوريا من جهه وبلاد الروم من جهه ثانيه، وكان العرب يدعون هذه الممرات الدروب وكانت تتميز بوعورتها وحصانتها كما كانت مصدر قلق وازعاج للجيوش الاسلامية الفاتحه فكانت من المناطق التي أفلتت من موجات الفتح الاسلامي الأولى وتؤكد ذلك المصادر الإسلامية عندما تشير إلى أن أبا عبيده بن الجراح عندما زحف لفتح أنطاكيه، واشتبك مع أهلها وألجأهم إلى المدينة، فصالحوه على الجزيه والجلاء عام ١٦ هـ / ٦٣٧م [١]. ويبدو أن جيش أبو عبيده تحاشي اجتياح سلسلة جبال اللكام المشرفة على أنطاكيه والمناطق المجاوره لها ولذلك فلم ينتبه المسلمون إلى وجود الجراجمه المرده الذين يبدو أنهم خشوا على أنفسهم من الجيوش الاسلاميه الزاحفه، ولذلك فضلت هذه العناصر عدم القيام بأيه غارات للنهب والسلب على مؤخره هذه الجيوش، ويؤكد هذا البلاذري قائلاً " فلما قدم أبو عبيده انطاكيه وفتحها، لزموا (أي الجراجمه) مدينتهم وهموا باللحاق بالروم، إذ خافوا على أنفسهم فلم ينتبه المسلمون لهم ولم ينبهوا عليهم "[٢].

والمرجح أن أبو عبيده بن الجراح القائد الأعلى للجيوش الإسلاميه الفاتحه في بلاد الشام قد أدرك بعد فترة قصيرة من اخضاعه أنطاكيه وأجزاء من شمال الشام خطأ بقاء سلسلة جبال اللكام بما فيها من دروب وممرات وقلاع كانت تخص البيزنطيين دون أن يتم فتحها خشية أن تتكون بها جيوب مقاومة من الفارين من بقية المدن الشاميه التى أجتاحها المسلمون ويكونوا مصدر ازعاج للقوات الاسلامية هناك. ويرجح أيضاً أنه وصلته أنباء عن خطورة بقاء هؤلاء الجراجمه المرده في تلك المناطق الجبلية داخل معقلهم الحصين الجرجومه خاصة وأنهم كانوا حلفاء للروم ومواليين لهم بسبب اعتناقهم للمذهب الملكاني مذهب كنيستى القسطنطينية وروما مما يمثل مصدر خطورة أيضاً على المسلمين في بلاد الشام، ولهذا قرر ابن الجراح فتح هذه الدروب والمعاقل الجبلية مهما كانت التضحيات. ولضمان سلامة القوات الاسلامية الزاحفة فيما وراء شمال الشام، وذلك عندما تتاح الفرصة لذلك وبالفعل واتته هذه الفرصة تقريباً في عام ١٧ هـ / ٦٣٨م عندما انتفض أهل أنطاكيه من الروم وغيرهم ورفعوا راية العصيان على المسلمين ونكثوا بالعهود التي قطعوها

---

(١) البلاذري : فتوح، ق١ ص ١٧٢ ، ١٨٩؛ خليفه بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق سهيل زكار، القسم الاول (ط. دمشق ١٩٦٨م) ص ١٢٤ .

(٢) البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٨٩ .

على أنفسهم، فوجه إليهم ابن الجراح من فتحها عنوه وولى عليها والياً من قبله يسمى حبيب بن مسلمه الفهري[1] ، والذي أخذ على عاتقه عبء استكمال فتح القلاع والحصون البيزنطية المجاورة لانطاكيه أو تلك التي تقع في سلسلة جبال اللكام المواجهه لأنطاكية ومنها الجرجومة معقل الجراجمة أو المرده. ويبدو أنه قام بحمله قوية على الجرجومه بهدف فتحها باعتبارها أقوى معاقل اللكام وكانت قذى في أعين امارة أنطاكيه المسلمه، فلم يقاتله الجراجمة، بل بادروا بطلب الأمان فوافق ابن مسلمه الفهري على أن يخضعوا للسياده الاسلامية مقابل عدة امتيازات منحها أياهم وهى:

١- أن يكون الجراجمة أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبال اللكام .

٢- أن لا يؤخذوا بالجزية وأن ينفلوا (أى يوهبوا) أسلاب من يقتلون من أعداء المسلمين إذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم. ودخل في هذا الصلح كل من كان في مدينتهم خاصة من الفارين من المدن الشامية التي فتحها المسلمون من تاجر وأجير وتابع من الأنباط وغيرهم من أهل القرى المجاورة [2] .

ويعلق أحد الكتاب النصارى المحدثين على هذا الصلح بين المسلمين والجراجمة بقوله انه يمثل معاهده فريده في نوعها آنذاك فيما يتعلق بتحرر الجراجمة من دفع الجزيه. وهذا يدل على أنهم فاوضوا وعاهدوا بصفتهم شعباً حراً غير مغلوب محتفظاً بدينه وغير مجبر لقاء ذلك على أداء الجزيه التي كان يفرضها المسلمون على أهل الكتاب. والبندان المتعلقان بالتعاون العسكري مع المسلمين يدلان على أن الجراجمة المرده الموارنه كانوا حلفاء للمسلمين لامغلوبين. ويضيف أن هذه المعاهده تمثل الميثاق الوطني الأول بين الموارنه والعرب[3] ، وأنها تمثل المرحلة الأولى من مراحل علاقات الجراجمة المرده بالعرب[4] .

وعلى الرغم من أن بعض الكتاب الموارنه المحدثين يؤيدون مثل هذا الرأى الا أننا نخالفه، لأن المتأمل لشروط الصلح بين المسلمون والمرده يدرك أن لها بعداً عسكرياً فالمسلمون لم يتعاملوا مع هذه العناصر كأنداد لهم ولكن عرفوا خطورة الدور الذي يمكن أن تؤديه مثل هذه

---

(١) البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٨٩ .

(٢) البلاذرى : فتوح ، ق١ ص ١٨٩ .

(3) Lammense (E.), Études sur la régne du calife omayde Mo'awia I er, in MFO 1906, To. I, p. 17.

(٤) هكذا فهم بعض المؤرخين المحدثين وعلى رأسهم هنري لامنس هذا الصلح بين السلمين والجراجمة المرده

الجماعات كطابور خامس للروم - العدو التقليدي للمسلمين - في هذه المناطق الجبلية الوعره وكانوا يدركوا أيضاً أن هذه الدروب أو الممرات الحصينة والتي تتميز بمناخ شديد البروده التي كان يعيش فيها الجراجمة المرده مصدر قلق لهم، وأقصى ما يمكن أن يواجهه الجندي العربية من المشقة في أعماله وهجماته[1]، وكانت المشاركه في اقتحام هذه الدروب تمثل ذروة الجهاد والبطولات لدى المقاتل المسلم[2]، في وقت كانت الفتوحات الاسلامية في أدق مراحلها ولم تكن قد استكملت بعد في كل من بلاد الشام وآسيا الصغرى وأرمينيا، وبالتالي أدرك أبو عبيده أن محاولات السيطرة على دروب اللكام في هذه المرحلة سوف تضيع سدى في وقت كان بحاجة لكل جهود قوى الجيوش الاسلامية المقاتله لاستكمال بقية الفتوحات والقضاء على الجيوش البيزنطية في المناطق المذكورة آنفاً، ولهذا أرتأى أن يستفيد بجهود هذه المناصر المسيحية ليكونوا عيوناً للعرب على الروم أو يكونوا بمثابة حاجز بينهم وبين قوات الروم في هذه الجهه، وهذا يفسر سر الامتيازات العديده التي منحها ابن الجراح لهؤلاء الجراجمة المرده فأسقط عنهم الجزية المفروضة على أهل الذمة، كما أخذ منهم تعهدات بالتعاون العسكري مع المسلمين بل ومنحهم جزء من الغنائم مقابل ذلك، وكان يدرك أن هذه الجماعات ستنفذ تعهداتها طالما كانت يد العرب الفاتحين قوية في هذه المناطق. وربما أن ابن الجراح كان يهدف من وراء هذه الشروط التي منحها للجراجمة المرده أن يكتسب مزيداً من الوقت لتتفرغ القوات الاسلامية لاتمام فتوحات بلاد الشام.

وعدا ذلك فقد التزمت المصادر الاسلامية الصمت حول نشاط أو دور فرق الجراجمة المرده خلال عصر الخلفاء الراشدين، فلم تشر إلى وجود حملات تأديبية من قبل المسلمين ضدهم، أو قيامهم بأية غارات للنهب والسلب في منطقة شمال الشام لصالح البيزنطيين حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين، مما يؤكد الحقيقة التي ذكرناها آنفاً، ان الجراجمة قد التزموا بتعهداتهم التي قطعوها للمسلمين، طالما كانت قبضة المسلمين قوية في بلاد الشام. ولكن سيلاحظ فيما بعد مع بداية العصر الأموى وفي فترة الاضطرابات التي صاحبت قيام الدولة الأموية وبعد قيامها وضعف

---

(١) يلاحظ ان العرب الفاتحين كانوا يتحاشون في كل حروبهم اقتحام دروب وممرات الجبال المنيعة على النحو الذي أكده ابن خلدون في مقدمته. ابن خلدون. مقدمة ابن خلدون ط. باريس، ص ٢٧٠. ولدينا العديد من الأمثلة في المشرق والمغرب تظهر ذلك بوضوح وذلك عند الفتح الاسلامي لاسبانيا وبالتحديد للجزء الشمالي الغربي المسمى اشتوريش Austrias في منطقة جليقيا أو غاليسيا فان المسلمين لم يفرضوا سلطانهم تماماً على هذه النواحي لوعورة مسالكها وبرودة مناخها، فاهملوا جانبها، ولهذا فرت اليها فلول الجيش القوطي المنهزم بزعامة بلاي واعتصمت بها في مغارة تسمى كوفا دونجا أو صخره بلاي. وفي هذه البؤره الصغيره نبتت نواه دوله اسبانيا النصرانية. راجع د. أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس اسكندرية ١٩٧٥، ص ٧٦-٧٧. معتمداً على مصادر.

(٢) يتضح ذلك في البيت الذي انشدته ليلى الأخيليه لحبيبها توبه بقولها:

ولكنما أخشى عليه قبيله ... لها بدروب الروم بادوحاضر

قبضة العرب سياسياً وعسكرياً في هذه الجهات نجدهم ينتهزون ذلك لرفع راية العصيان ضد الخلافة الأموية في دمشق ويعلنون ولاءهم للروم، ويؤكد ذلك البلاذري قائلاً " فكان الجراجمة يستقيمون للولاة، ويعوجون أخرى فيكاتبون الروم ويمالئونهم " [١] ، على النحو الذي سنوضحه في موضعه من هذه الدراسة.

ثالثاً : الجراجمة المرده حتى نهاية العصر الأموي :

أ- في عصر الخليفة معاوية بن أبي سفيان :

على أن الدور الحقيقي والبارز لهؤلاء الجراجمة المرده في منطقة جبل اللكام وشمال الشام انما يبدأ مع قيام الدولة الأموية على انقاض دولة الخلافة الراشده حيث يظهر صدى هذا الدور في ثنايا المصادر الاسلامية والبيزنطية والسريانية المعاصره للفترة والقريبة منها . وتشير كل من الرواية الاسلامية[٢] والرواية البيزنطية[٣] إلى أن الدولة البيزنطية قد انتهزت فرصة انشغال معاوية ابن أبي سفيان في السنين الأولى من حكمه ببعض المشاكل الداخلية مثل توطيد الملك لنفسه ولآل بيته وبالتمهيد لمبايعة ابنه يزيد بولاية العهد وحروبه في كل من العراق والحجاز لاخضاعهما لسيادة الدولة الأموية، حيث شجعت جماعة الجراجمة المرده على شن الغارات على مناطق الثغور الاسلامية[٤] في محاولة لتحقيق بعض المكاسب السياسية والعسكرية في بلاد الشام على حساب الأمويين هناك، وبعد أن عجزوا عن النيل من دولة الاسلام بالغزو، وبالفعل قامت جماعات الجراجمة المرده بشن سلسلة من الغارات السريعة والخاطفة للنهب والسلب وتشير الرواية البيزنطية[٥] إلى أن هذه الغارات شملت مناطق كبيرة تمتد من جبل مورروس (اللكام) وتوغلت في بلاد الشام حتى بلغت مدينة بيت المقدس[٦] . وتؤكد الرواية البيزنطية دون الرواية الاسلامية على نجاح المرده في غزو لبنان وفرض السيطرة التامة على العديد من مناطق شمال

---

(١) البلاذري : فتوح، ق١ ص ١٨١ .

(٢) البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٩١ .

(3) Theophanes, chronicle, p. 53

(٤) لم تحدد الرواية الاسلامية للبلاذري السنة التي حدثت فيها غارات وهجمات هذه الجماعات .

(٥) يحدد ثيوفانيس تاريخ هذه الغارات عام ٦٧٧م/ ٥٨ هـ . ولكننا نشك في هذا التحديد الزمني لهذه الغارات خاصة وانه الوحيد الذي انفرد بذكر تاريخ هذه الغارات في حين صمتت بقية المصادر الاسلامية والسريانية عن الاشارة لهذا التاريخ .

(6) Theophanes,chronicle, p. 53

ويلاحظ أن ثيوفانيس يطلق على هذه الغارات اسم فتوحات .

ووسط وجنوب الشام. وعلى الرغم مما يبدو في هذه الرواية من مبالغات باتره وبعدها عن الحقائق التاريخية وتعارضها مع الروايات المتواتره في المصادر الاسلامية التي تناولت الصراع الأموى البيزنطي في عهد معاويه، الا أنها توضح مدى التأثير الذي أحدثته هذه الغارات من قبل الجراجمة المرده بتدعيم عسكري من بيزنطة، لدرجة أن معاوية الذى لم يكن مستعداً وقتذاك في الدخول في مواجهه كبرى ومباشرة مع بيزنطة اضطر إلى خطب ود الامبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع (بوجونات) طالباً منه عقد هدنه مقابل أن يدفع للامبراطور جزية سنوية[1]، وأن يأخذ معاوية بعض الرهائن (ربما من الروم) ووضعهم في بعلبك مقابل تنفيذ الهدنه مع الروم[2].

ورغم أن المصادر الاسلامية لم توضح قيمة الجزية التي يدفعها معاوية للروم الا أن الرواية البيزنطية تشير إلى أن معاوية التزم في معاهدة الصلح هذه أن يؤدي جزية تصل إلى ثلاثمائة وخمسة وستين ألف قطعة ذهبية **Nomismata** سنوياً وكل يوم أسيراً وجواداً أصيلاً[3]. ورغم أن المصادر الاسلامية والبيزنطية لم تشر اذا كانت معاهدة الصلح تتضمن الجراجمة المرده وايقاف غاراتهم، الا أننا نرجح – وطبقاً للرواية السابقة التي أشارت لذلك بالتلميح دون التصريح – ان بيزنطه قد تعهدت بإيقاف نشاط هذه العناصر باعتبارهم موالين وحلفاء للروم والذراع التي يستخدمونها لنشر الاضطرابات وزعزعة الاستقرار في منطقة الثغور الاسلامية المواجهه للحدود البيزنطية[4]. ويؤكد هذا أن المصادر الاسلامية والبيزنطية والسريانية لم تشر على الاطلاق لوجود غارات أو نشاط لهؤلاء الجراجمة المرده منذ أواخر عهد معاوية حتى عام ٦٥ هـ / ٦٨٤م والتي شهدت خلافة عبد الملك بن مروان.

٢- في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥م):

وتأكيداً لقول البلاذري بأن الجراجمة المرده يستقيمون للولاه المسلمين كلما كانت الحكومة

---

(١) البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٩٠ ايضاً :
Theophanes, chronology. 53

(٢) البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٩٠ . ويلاحظ ان الرواية الاسلامية هى الرواية الوحيدة التي انفردت بذكر هذه الأمور الخاصة بمعاهدة الصلح .

(3) Theophanes, chronology, p. 59

(٤) يذكر أحد المؤرخين المحدثين ان غارات الجراجمة المرده في عهد معاوية ترتب عليها استقرار بعض العناصر منهم في المنطقة الممتده ما بين جبل كسروان وسهل البقاع اللبناني راجع عمر فروخ : تاريخ صدر الاسلام ، ص ١٤٦ معتمداً على مصادر ومراجع لم يذكرها .

الاسلامية في بلاد الشام قوية، ويعوجون اخرى فيكاتبون الروم ويمالئونهم[1] في فترة ضعف وتراخي قبضة المسلمين في بلاد الشام، وجرياً على طريقتهم في استئناف غاراتهم وهجماتهم بتأييد بيزنطي مستتر، في أثناء الاضطرابات التي شهدتها الخلافة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ / ٦٨٥ – ٧٠٥م) وذلك أثناء تلك الكوارث التي تلاحقت على الدولة الأموية وبالتحديد عامي ٦٥ – ٦٦ هـ / ٦٨٤ – ٦٨٥م حيث شهدت الشام مجاعة وقحطاً لم تشهد لهما نظيراً من قبل ولم تقو الدولة الأموية على دفعهما على حد تعبير الرواية البيزنطية[2]، في الوقت الذي كان منشغلاً بحروبه في العراق والصراع القائم بين المختار بن أبي عبيد الثقفي ومصعب بن الزبير في مطلع عام ٦٧ هـ / ٦٨٦م وبتحريض من الدولة البيزنطية قام الجراجمة المرده بمعاودة هجماتهم وشن سلسلة من الغارات على قرى انطاكيه والعمق القريبة منهم، ولم يكتفوا بهذا بل وعن طريق عون بيزنطي عسكري قاموا بشن سلسلة هجمات خاطفة على مؤخرة حملات الصوائف التي كان يقوم بها آل مروان في آسيا الصغرى وخاصة بأرمينيا وأثناء عودتها إلى بلاد الشام وعبر البلاذري عن ذلك قائلاً : " واذا غزت (أى الجيوش الأموية) الصوائف، فقطعوا (أى الجراجمة المرده) على المتخلف واللاحق ومن قدروا عليه ممن في آواخر العسكر، وغالوا في المسلمين "[3] . وتتفق الرواية البيزنطية مع الرواية الاسلامية في هذه الجزئية وتكملها عندما تشير إلى أن الجراجمة المرده الذين نجحوا في التسلل إلى بلاد الشام استقروا في المنطقة الواقعة بين جبل كسروان وسهل البقاع في لبنان، قاموا بشن سلسلة غارات مماثله في المناطق المجاوره لجبال لبنان[4] ، مما سبب ازعاجاً كبيراً للخليفة الأموى عبد الملك بن مروان الذي رأى أن هؤلاء الجراجمة وحلفاؤهم من الروم يشغلونه عن مقارعة خصومه بالداخل ويغلون أيديه عن القيام بالاصلاحات واقرار الأمور السياسية داخل الدولة الأموية، ويمثل مصدر تهديد لحملات الصوائف المنتظمة داخل الأراضي البيزنطيه في آسيا الصغرى، مما دفعه لاتخاذ الاجراءات الكفيلة بإيقاف خطر هؤلاء الجراجمة المرده " فأمر عبد الملك بفرض العطاء لقوم من أهل أنطاكيه وأنباطها فجعلوا مسالح، وأردفت بهم عساكر الصوائف ليؤدبوا الجراجمة عن أواخرها، فسموا بالروادیف، وأجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير"[5] .

ويبدو أن مثل هذه الترتيبات لم تؤت ثمارها وتحد من هجمات وغارات هؤلاء الجراجمة المرده، مما أجبر عبد الملك بن مروان، في هذه المرحلة الحرجة من حكمه، إلى ارسال سفراء للامبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع يطلب تجديد الهدنه وتجديد معاهدة الصلح التي سبق وأن

---

(١) البلاذري : فتوح، ق١ ص ١٨٩ .

(2) Theophanes, chronicle, p. 59 .

(٣) البلاذري : فتوح، ق١ ص ١٩١ .

(4) Theophanes, chronicle, p. 59 .

(٥) البلاذري : فتوح، ق١ ص ١٩١، معتمداً على رواية ابن الخطاب الأزدي .

وقعت بين الجانبين في أثناء خلافة معاوية، وبالفعل تم تجديد المعاهدة عام ٦٦ هـ أو ٦٧ هـ/ ٦٨٥م أو ٦٨٦م على أن يؤدي الخليفة الأموى لبيزنطه نفس الالتزامات المالية التي سبق وأداها معاويه وهى ثلثمائة وخمس وستين ألف دينار **Nomismata** ومثلها من العبيد ومن الخيول[1]. وعلى الرغم من أن هذه المعاهده، كما تشير الرواية البيزنطية، لم تتضمن اشارات إلى الجراجمة المرده الا أننا نرجح أن الامبراطور البيزنطي تعهد لعبد الملك ابن مروان بإيقاف غارات الجراجمة في نواحي أنطاكيه وعلى الثغور الاسلامية الواقعة أقصى شمال الشام، وكذلك في منطقة جبال لبنان. وتؤكد المصادر الاسلامية والبيزنطية صدق وجهه النظر هذه عندما تشير إلى أن غارات الجراجمة المرده ظلت متوقفه ما يقرب من عامين من توقيع هذه المعاهده. والمرجح أن عبد الملك كان يدفعه إلي تجديد هذه المعاهده مع الروم دوافع سياسية وعسكرية لتمنحه الوقت الكافي لالتقاط الأنفاس حتي يتمكن من القضاء على الثورات الداخلية في العراق، ثم يعد العده للدخول في مواجهه عسكرية كبرى ومباشرة ضد كل من البيزنطيين وصنائعهم من الجراجمة والمرده، ويعيد استقرار الأوضاع في منطقة الثغور الاسلامية البيزنطية في كل من شمال الشام وآسيا الصغرى.

وعلى الرغم من نجاح عبد الملك في التخلص من حركة المختار الثقفي[2]، الا أنه وجد نفسه غارقاً في خضم من الثورات التي قامت في بلاد الشام والعراق والحجاز، وتمثل ذلك في حركة عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب، وثورة زفر ابن الحارث الكلابي بقرقيسياء والرحبة، وفتنه اخرى في دمشق وقعت أثناء غياب عبد الملك في العراق، عندما امتنع بها عمرو بن سعيد بن العاص ودعا الناس بدمشق الى بيعته بالخلافه، وتحصن داخل أسوارها[3] منذ عام ٦٩ هـ / ٦٨٨م[4] أو عام ٧٠ هـ / ٦٨٩م[5]، ويبدو أن الامبراطور البيزنطي جستنيان الثاني، المعروف بالأخرم أو الأشرم كان يراقب عن كثب تطورات هذه الامور داخل الخلافة الأموية وخارجها، ففكر في تحقيق المزيد من المكاسب الاقليمية على حساب الأمويين في بلاد الشام مستغلاً في ذلك الجراجمة المرده الورقة الرابحة في صراعه مع الدولة الأموية، وضارباً بمعاهدة الصلح

(1) Theophanes, chronicle, p. 59

ويلاحظ ان تاريخ ثيوفانيس هو المصدر الوحيد الذي انفرد بذكر تجديد هذه المعاهدة وتحديد تاريخها، وان كان التحديد التاريخي في روايات ثيوفانيس غير دقيق ويتميز بالتخبط والاضطراب.

(٢) للاستزاده عن ثوره المختار الثقفي راجع د. على حسني الخربوطلي: المختار الثقفي، مرآه العصر الأموي، سلسلة اعلام العرب (رقم ١٦) المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة عام ١٩٦٢، ص ١٧٩ - ٢٠٥، ٢٩٣ وما بعده

(٣) البلاذري: فتوح، ق١ ص ١٩٠، النويري: نهاية الارب، ج٢١ (تحقيق على محمد البجاوي ط. دار الكتب القاهره ١٩٧٦، ١٠٨.

(٤) هكذا في النويري: نهايه الأرب ج٢١ ص ١٠٨. معتمداً على ابن الاثير.

(٥) هكذا البلاذري: فتوح، ق١ ص ١٩٠.

عـرض الحائـط ، وسرعـان مـا خـرجـت حمـلـه بقيـادة أحـد قـادة الروم (ولم تشر المصادر الاسلامية إلى اسم هذا القائد) [1] الى جبـل اللكـام، حيـث انضمـت اليـه جماعـات كثيـرة مـن الجراجمة وأنباط وعبيد آباق من عبيد المسلمين، كما انضمت اليهـم مـرده جبـل لبنـان[2] بقيـادة رجل يسمى ميمون الجرجماني وكان عبداً رومياً لبنى أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان[3]. ويرجح أنه كان ضمن المعارضين أو الثائرين علـى الأمويين الذيـن فـروا واعتصمـوا بجبـال الشـام ليكونوا بمنأى عن قبضة الأمويين، ثم انضم إلى هؤلاء الجراجمة المرده في جبل لبنان، وانما نسب إلى الجراجمه لاختلاطه بهم وخروجه بجبل لبنـان معهـم[4] . ويبـدو أن هـذه الحملـة البيزنطيـة بالاتفاق مع جراجمة جبل اللكام ومردة لبنان قامت بشن سلسلة من الغارات القوية السريعة على بعض مدن وقرى بلاد الشام، منتهزة فرصة انشغال عبد الملك وجيوشه بـالصراع ضـد انصـار ابـن الزبير في العراق والحجاز .

وهكذا وجد عبد الملك نفسه في موقف لايحسد عليه أمام تلك الكوارث التي تلاحقـت علـى الدولة الأموية منذ عام ٧٠ هـ / ٦٨٩م ، وبما عرف عنه من دهاء كان عليه مواجهه هـذه الأمـور بالدهاء والسياسة ولذلك لم يجد مفراً امامه سوى مهادنة الامـبراطور البيزنطي جسـتنيان الثـاني المحرض الحقيقي لهذه الهجمات، وللحيلولة دون استمرارها ليتفرغ لمواجهة الأحـداث الداخليـة مثلما فعل معاوية من قبل " وصالح طاغيـة الـروم علـى مـال يؤديـه اليـه لشـغله عـن محاربتـه، وتخوفه أن يخرج إلى الشام فيغلبه عليه، وأقتـدى في صلحـه بمعاويـة حـين شـغل بحـرب أهـل العراق " [5] . أما بالنسبة للقائد الرومي الذي قام بعمليات النهب والسلب هذه أو الغـارات علـى بلاد الشام، فتجمع الروايات الاسلامية على اضطرار عبد الملك أيضـاً إلى مهادنتـه ومـن معـه مـن الجراجمة والمرده والأنباط وغيرهما بعد أن سيطروا على بعض المناطق في جبـل لبنـان كمـا تذكـر المصادر الاسلامية بالتلميح دون تصريح " وصالحهم على ألف دينار في كـل جمعـه " [6] ، وذلـك مكراً وخديعـة ومحاولاً كسب ثقة القائد الرومي " فركن (أى القائد الرومي الخارج) إلى ذلك ولم

---

(١) يذكر النويري – نقلاً عن ابن الاثير – انه كان قائداً من قواد الضواحي في اللكام ، وانه كان أحد القاده الخارجين علي طاعة عبد الملك بن مروان . النويري : نهايه ، ج٢١ ، ص ١٠٩ .

(٢) البلاذري : فتوح، ق١ ص ١٨٩ ، النويري:نهايه، ج٢١ ص ١٠٨ – ١٠٩ .

(٣) البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٩٠ .

(٤) البلاذري : نفس المصدر والصفحة .

(٥) البلاذري : الفتوح ، ق١ ص ١٨٩ – ١٩٠ ، ويلاحظ ان روايه ابـن الاثير تختلف في هذه الجزئية عن رواية البلاذري اذ أنها لاتشير إلى مهادنه عبد الملك لملك الروم. ابن الاثير: الكامل، ط. ،ج٣ص٤٠٠ ،

(٦) البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٨٩ ؛ ابن الاثير : الكامل، ج٣، ص٤٠٠؛ النويري: نهاية، ج٢١ ص١٠٩ .

يفسد في البلاد" [1] ، وذلك ليكرس كل جهوده لتوحيد الدولـه الاسلامية واقامـة جبهـه واحـدة تواجه الروم وعملائهم، ثم بعد ذلك يتفرغ لمواجهة المشاكل الخارجية .

كان الخليفة عبد الملك بن مروان مـن الدهـاة الحلمـاء الذيـن يحسـنون الصبر علـى الاسـاءة وانتهاز الفرصة المناسبة للانتقام، فما كاد ينتهـي مـن فتنـة عمرو بـن سـعيد بـن العـاص وقتلـه واستعادته لدمشق عام ٧٠ هـ / ٦٨٩م ويقضي على ثورة زفر بن الحارث الكلابي بقرقيسـياء عـام ٧١ هـ / ٦٩٠م وقتل مصعب بن الزبير بالقرب من دير الجاثليق بالعراق، ولم يتبـق امامـه سـوى القضاء على حركة عبد الله بن الزبير بالحجاز، حتـى بـدأ يفكـر في القضـاء علـى حركـة القـائد الرومي ومن انضم إليه من الجراجمة المرده وغيرهم والذين تمكنوا مـن الاسـتيلاء علـى أجـزاء مـن جبال لبنان واعتصموا بها وسببوا الكثير من المضايقات للأمويين في بلاد الشـام معتمديـن في ذلـك على الحصانة الطبيعية لهذه الجبال بما فيها من دروب وممرات وعلـى ارتفاعهـا، وأرتـأى عبـد الملك اصطناع المكر والحيلة للتخلص من الروم ومن معهم فأرسل إليهم أحد رجالـه المخلصين لـه ويسمى سحيم بن المهاجر، فتلطف سحيم حتى دخل عليه (أى على الرومي) متنكراً ومتظـاهراً امامه والجراجمة بكراهية عبد الملك وبني أميه حتى استمالهم[2] اليه ووثقوا به، ثم انكفـأ عليهـم بقوم من موالي عبد الملك وجنده كان أعدهم لمواقعتهـم ورتبهـم بمكـان عرفـه، ودهمهـم علـى غـير أهبة، وأمر فنودي " من أتانا من العبيد (أى الذين مع القـائد الرومـي) فهـو حـر، وثبـت في الديوان، فالتحق به خلق كثير منهـم، وقـاتلوا مـع سـحيم فقتـل هـذا الخـارجي ومـن معـه مـن الروم"[3] . وقتل نفر من الجراجمة والأنباط، ونادى بالامان فيمـن بقـى منهـم فتفرقـوا[4] ، وكـان منهـم الجراجمـة أو المرده الذين تفرقوا بقرى حمص ودمشق، ورجع اكثرهم إلى مدينتهم باللكام،

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج٣، ص٤، النويري : نهايه، ج٢١ ص ١٠٩

(٢) البلاذري : فتوح، ق١ ص ١٩٠ ، النويري : نهايه، ج١ ص ١٠٩ .

(٣) البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٩٠ ، النويري : نهاية ، ج٢١ ص ١٠٩ ، ويلاحظ أن الطريقه التي اتبعها عبد الملك للقضاء على حركة الروم والجراجمة المرده في جبال لبنان تشبه إلى حد كبير ما قام به الامير الأموي في الاندلس الحكم الربضي عندما طبق نفس الاسلوب لاخماد ثوره المولدين في طليطله عن طريق أحد رجاله المخلصين من المولدين ويسمى عمروس بن يوسف الوشقي،راجع د. احمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والاندلس.ص ١٢٩ معتمداً على مصادر.

(٤) النويري : نهاية ، ج٢١ ص ١٠٩ .

وأتي الأنباط قراهم فرجع العبيد إلى مواليهم[1] .

وهكذا تمكن عبد الملك من القضاء على هجمات الروم بالتحالف مع الجراجمة في المنطقة الممتدة من جبل كسروان إلى سهل البقاع، ولم يبق أمامه سوى أن يقوم بحملة تأديبية أو انتقامية ضد بيزنطة في آسيا الصغرى لعلمه بانها هي المحرض الرئيسي لغارات أو هجمات الجراجمة المرده، الا أن انشغاله بعد ذلك باخماد ثورة عبد الله بن الزبير في بلاد الحجاز وهي الثورة التي كانت كفيلة بزلزلة أركان الخلافة الأموية وتقويضها جعلته يفكر أن الحكمة تقتضيه الا يستثير حفيظة الامبراطور البيزنطي جستنيان في هذه المرحلة بل أن الموقف يحتم عليه أن يستمر في مهادنة بيزنطه ولهذا . ففي أواخر عام ٧١ هـ/ ٦٩٠م أو مطلع عام ٧٢هـ/ ٦٩١م أرسل سفاره من قبله إلى الامبراطور جستنيان الثاني لتأكيد الصلح القائم بين الطرفين وتجديد المعاهدة التي سبق توقيعها بين قسطنطين الرابع ومعاوية[2] ، وأشارت هذه المعاهده ضمن بنودها إلى بعض الأمور الهامة التي تخص الجراجمة المرده، وتنص المعاهده على ما يلي:

١- يؤدي الخليفة الأموي كل يوم ألف دينار ذهب وحصاناً وأسيراً .

٢- يقتسم الجانبين مناصفة خراج أو جزية كل من قبرص وأرمينيا وأيبيريا (أو ايبريا) [3] .

---

(١) البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٩٠ كان من ضمن أسرى قوات عبد الملك من الجراجمة بعض المسلمين الذين عاشوا مع الجراجمة النصاري، فنسبوا اليهم ومنهم ميمون الجرجماني المشار اليه آنفاً، وبلغ عبد الملك عنه بأسه وشجاعته، فسأل مواليه أن يعتقوه فتوده على جماعة من الجند وغزا مع مسلمة بن عبد الملك الطوانه، وساهم في العديد من الانتصارات ضد الروم حتى استشهد. البلاذري:فتوح، ق١ ص ١٩٠ .

(٢) يلاحظ أن الرواية البيزنطية هي الوحيدة التي انفردت بالاشاره إلى هذه المفاوضات الأموية البيزنطية وإن وضعتها ضمن أحداث عام ٦٨٦-٦٨٧م/ ٦٧-٦٨ هـ. راجع :

Theophanes, Chronicle, p. 61.

وان كان هذا التحديد التاريخي من ثيوفانيس غير دقيق لأنه يتعارض مع مجريات هذه الاحداث وما ذكرته المصادر الاسلامية حولها .

(٣) ايبريا : تقع ضمن اقليم القوقاز جنوب شرق البحر الأسود وبالتحديد في شمال أرمينيا .

Grousst(R.), Histoire de L' Armenie des origins à 1071, Paris 1947, p. 13.

أيضاً عبد الرحمن عبد الغني: أرمينية وعلاقاتها السياسية بكل من البيزنطيين والمسلمين (٦٥٣-١٠٦٤م/٣٣-٤٥٧هـ) رسالة دكتوراه لم تنشر (كلية آداب الاسكندرية عام ١٩٨٣م) ص ١٣٦، ١٦٨، خريطة رقم ٨ أمام ص٣١٨. معتمداً على مصادر ومراجع .

٣- مقابل هـذه الاغـراءات أو التنـازلات الـتي قدمهـا الخليفـة الأمـوي دارت مفاوضـات حـول الجراجمة المرده حيث وافق الامبراطور البيزنطي على كبح جمـاح المـرده الجراجمـة وايقـاف غاراتهم على لبنان[1] .

واستجاب الامبراطور أيضاً لطلب عبد الملك بن مروان في نقل الكثير منهـم مـن تـلال لبنـان وسوريا وجبـال الآمـانوس (اللكـام) أى مـن المنـاطق المتاخمـة للثغـور الاسـلامية ، وبـالفعل قـام الامبراطور بترحيل ما يقرب من اثنى عشر الفاً من هؤلاء المرده وأبعدهـم إلى أرمينيـا[2] . ويذكـر ثيوفانيس أن الامبراطور بتصرفه هـذا " أضعـف قـوة الدولـه الرومانيـة (يقصـد البيزنطيـة) لأن جميع المدن الواقعة فوق المرتفعـات الممتـده مـن المصيصـة والعـراق إلى ارمينيـا الرابعـة أصبحـت ضعيفة وخالية من السكان بسبب ترحيل هؤلاء المرده، وأنه توالت منذ ذلك اليوم وحلت المحن والمصائب في المملكة الرومانية (البيزنطية) بسبب هجمات وغارات العرب حتى الوقـت الحـالي (أى العصر الذي عاش فيـه ثيوفـانيس) "[3] ويضيـف المـؤرخ البـيزنطي - ضمـن نتـائج ابعـاد أو تهجير المرده إلى أرمينيا أن الامبراطور بذلك حطم بيده هذا السور النحاسي القـوى The Stout wall الذي كان يفصل حدوده عن حدود خصومه من العرب المسلمين[4] . وهذه الرواية البيزنطية تؤكد على أن الهدف الحقيقي الذي كان وراء تجديـد الصلـح مـع بيزنطـه مـن قبـل عبـد الملـك والتنازلات التي قدمها هو تحييد الدولة البيزنطية والتخلص من المرده الجراجمـه الذيـن سببـوا الكثـير مـن المضايقـات والازعـاج للخليفـة الأمـوى وكـانوا كفيلـين بـأن يصرفـوا اهتمامـه عـن مقارعـة خصومه بالداخل ويغلون أيديه عن القيام بالاصلاح السياسي داخل أقاليم الخلافة

---

(١) هكذا أكد ثيوفانيس في موضع آخر من كتابه :

Theophanes, chronicle, p. 63

وهو المصدر الوحيد الذي ذكر هذه الروايات في حين أن المصادر الاسلامية والسريانية الاخري لم تشـر علـى الاطلاق إلى مثل هذه الامور .

(2) Theophanes, chronicle. pp. 61 -62

وهو المصدر الوحيد الذي انفرد بذكر ذلك .

(3) Theophanes, chronicle , p. 61.

(٤) اعترف بذلك ثيوفانيس في روايته على نحو واضح Theophanes, chronicle, p. 63,

معتمدين في ذلك على رواية ثيوفانيس[1] . ويلاحظ أن أياً من الروايات الاسلامية والسريانية لدينا لم تشر على الإطلاق إلى مثل هذه المعاهده أو الشروط التي اتفق عليها الجانبين البيزنطي والأموي والتي وقعت عام ٧٢ هـ / ٦٩١م .

على أية حال، برغم أن معظم هؤلاء الجراجمة قد أعيدوا اما إلى بلادهم في الجرجومة أو أرمينيا، الا أننا نرجح أنه قد بقيت منهم عناصر ذابت فيما بعد في البيئات المارونية في جبل لبنان أذ نسمع عن وجود لهؤلاء المرده أو الموارنه في عصر الحروب الصليبية في كل من جبيل والبترون وطرابلس ومنحدرات لبنان، طبقاً لما ذكرته المصادر الصليبية[2] .

ويبدو أن السياسة التي اتبعها عبد الملك للقضاء على الجراجمة المرده وحلفاؤهم من الروم في بلاد الشام قد نجحت تماماً، فالمصادر التي لدينا اسلامية كانت أم بيزنطية وسريانية لم تشر إلى وجود خطر أو غارات من ناحيتهم تثير قلق عبد الملك منذ عام ٧٢ هـ / ٦٩١م حتى نهاية حكمه ٨٦ هـ/ ٧٠٥م مما مكنه من القضاء على حركة عبد الله بن الزبير عام ٧٣ هـ / ٦٩٢م واستكمال بقية الاصلاحات السياسية والادارية والاقتصادية داخل الدولة الأموية .

٣- الجراجمة المرده أثناء خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦ هـ/٧٠٥ -٧١٥م) :

وفي شوال عام ٨٦هـ / اكتوبر ٧٠٥م توفى عبد الملك بن مروان واستخلفه ابنه الوليد الذي شهدت الخلافة الأموية في أيامه أزهى عهودها وأعظم فتوحاتها في السند وما وراء النهر. وعلى الرغم من صمت المصادر البيزنطية والاسلامية عن الاشارة إلى قيام الجراجمة المرده في منطقة الثغور أو الثيمات البيزنطية المجاورة للحدود الاسلامية أقصى شمال الشام بأية هجمات أو غارات في أوائل خلافة الوليد بن عبد الملك، بعد عمليات التهجير البيزنطي لاعداد كبيرة من الجراجمة كما ذكرنا من قبل في خلافة عبد الملك، الا أن الرواية الاسلامية تطلع علينا بنص يشير إلى معاودة هؤلاء الجراجمة إلى شن غاراتهم انطلاقاً من معقلهم في الجرجومة بجبل اللكام عام ٨٩ هـ/ ٧٠٧م " حيث اجتمعوا (أى الجراجمة المرده) في مدينتهم وأتاهم قوم من الروم من قبل الاسكندرية (الاسكندرونه) وروسيس"[3] . والواقع أن اشارة البلاذري إلى انضمام الروم إلى

---

(١) اعترف بذلك ثيوفانيس في روايته على نحو واضح . Theophanes, chronicle, p. 63

(2) William of Tyre, deeds, vol. II, pp. 458 - 459

ويقدر عددهم بحوالى اربعين ألفاً.

(٣) البلاذري: الفتوح، ق١ ص ١٩٠. وروسيس هذه كورة من كور العواصم تقع على طول الساحل البحري المتد بين أنطاكيه وطرسوس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ط. اوربا ، ج٢ ص ٨٤٠.

الجراجمة، يشير إلى أن الروم كانوا لايزالون يعتبرون هؤلاء الجراجمة المرده ورقة رابحة ومزعجة في صراعهم مع الدولة الأموية في هذه الفترة.

على أن الوليد بن عبد الملك الذي لم يواجه مشاكل أو فتن بالداخل على النحو الذي كان في عهد والده من قبل، خاصة وأنه تسلم زمام الحكم لدولة مستقرة داخلياً وقوية خارجياً، ولذلك لم يكن بحاجة إلى أن يهادن هؤلاء الجراجمة أو المرده أو يخطب ود البيزنطيين أو يذكرهم بتنفيذ أحد بنود المعاهدة التي وقعت مع أبيه عبد الملك من قبل وذلك بكف أيدي الجراجمة وايقاف غاراتهم على الثغور أو الحدود الاسلامية شمال الشام، وابعاد بقاياهم إلى ارمينيا وغيرها، وعلى هذا قرر أن يقطع دابر هؤلاء القوم ويقوم بتدمير معقلهم الجرجومة، ومن أجل ذلك أعد حملة ضخمة قوية وضع عليها أخاه مسلمه بن عبد الملك[1]، وكلفه باجتياح معاقل ومراكز الجراجمة المرده في جبل اللكام ووضع نهاية لهم ولغاراتهم " فأناخ عليهم في خلق من الخلف "[2] واستطاع أن يفتتح الجرجومة عنوه[3].

ويبدو أن الوليد كان قد اتفق مع مسلمة على وضع نهاية لغارات وعمليات النهب والسلب لهذه العناصر النصرانية وعصيانهم وتمردهم الدائم على السلطة الاسلامية، وذلك بأن عرض عليهم أن ينزلوا حيث أحبوا من مناطق أو أقاليم الشام وذلك لاذابتهم في المجتمع الاسلامي والبيئات المسيحية الاخرى الخاضعة للحكم الاسلامي في بلاد الشام، ولذلك جدد لهم ما كان لهم من الامتيازات منذ أيام الفتح الأول، ومنها :

١- يجري على كل امرىء منهم ثمانية دنانير .
٢- وعلى أبنائهم القوت من القمح والزيت (مديان من القمح وقسطان من الزيت) .
٣- منحهم الحرية الدينية فلا يكرهوا ولا أحد من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية .
٤- أن يلبسوا لباس المسلمين .
٥- لا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ولا نسائهم الجزية مثلما يؤخذ من أهل الذمة أى مساواتهم مع المسلمين في بعض الحقوق، ولهذا البند بعد وذكاء سياسي وديني من قبل الخليفة الوليد وذلك لاجتذابهم إلى حظيرة الاسلام وجعلهم يشعرون بالامان والطمأنينة تحت السيادة الاسلامية .

---

(١) ينسب اليه بناء حصن مسلمه بالعراق على تل بني سيار. راجع الادريسي: نزهه المشتاق في اختراق الآفاق، ط. مكتبه الثقافة الدينية بالقاهره (بدون تاريخ) ، المجلد الثاني ص ٦٢٢ .

(٢) البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٣) البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٩١ .

٦- أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزه، وعلى أن يؤخذ من أموال المسلمين .

ثم قام مسلمة بتخريب مدينتهم الجرجومة وعفا أثرها بعد أن أنزلهم منها ثم قام بتوزيعهم في المناطق الممتده من أنطاكيه إلى حلب وبالتحديد في جبل الحوار وسنح اللولون وعمق تيزين، وأختار بعضهم أن يسكن حمص(١) ، وذلك ليكونوا تحت أعين الولاه المسلمين في هذه المناطق(٢) . أما بطريق الجرجومة فقد لجأ مع جماعة من الجرجومة إلى أنطاكيه، ثم فر بعد ذلك إلى بلاد الروم بعد أن رفض الخضوع للسيادة الأموية (٣) .

ويبدو أن هذه السياسة التي عالج بها الوليد بن عبد الملك عصيان وتمرد هؤلاء الجراجمة المرده كان لها أثرها الكبير في استمالتهم إلى حظيرة الاسلام واختلاطهم بالمجتمع الاسلامي في بلاد الشام، وانهاء نزعة العصيان أو الخروج على السلطة الأموية الحاكمة ووضع نهاية لغارات السلب والنهب التي قاموا بها منذ الفتح الاسلامي لبلاد الشام حتى آواخر العقد الثامن من القرن الأول الهجري (أوائل القرن الثامن الميلادي) ، واستكانتهم للحكم الأموى، ويؤكد ذلك أن المصادر الاسلامية لم تشر على الاطلاق إلي وقوع أية تمرد أو عصيان أو غارات لهؤلاء الجراجمة المرده في عهد الوليد بن عبد الملك وبالتحديد منذ عام ٨٩هـ /٧٠٧م وحتى وفاته عام ٩٦ هـ/ ٧١٥م .

وعدا هذه الحادثة التي قضى فيها الوليد على الجراجمة أقصى شمال الشام وخرب معقلهم بحبل اللكام ثم قام بتشتيتهم في أنحاء متفرقه ببلاد الشام ليقضي على شوكتهم، فقد التزمت المصادر الاسلامية والبيزنطية والسريانية الصمت التام عن قيام هؤلاء بأية حركات خروج أو ثورات على الخلافة الأموية وتقلص دورهم تماماً وحتى سقوط الخلافة الأموية في المشرق الاسلامي عام ١٣٢هـ/٧٤٩م ، مما يعتبر مؤشراً هاماً لنجاح سياسة الوليد بن عبد الملك التي أتبعها للقضاء على خطر هذه العناصر المسيحية في بلاد الشام .

---

(١) البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٩١ .

(٢) سكن الموارنه أيضاً الجبال المجاوره لمدينة طرابلس مثل اهدن وجبه بشري والحدث وبتوفا وعكا والزاويه والضنيه والبترون وجبيل والمنيطرة وفي كسروان د. عبد العزيز سالم: طرابلس الشام ص ٢٢٧ .

(٣) البلاذري : فتوح ، ق١ ص ١٩١ .

مصادر الدراسة ومراجعها

أولاً: المصادر العربية

ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م) عز الدين أبي الحسين على بن ابي الكرم بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، ط. بيروت عام ١٩٨٦م

الأدريسي(ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤م) ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ادريس الحموي الحسني: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط. مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة بدون تاريخ، مجلدان .

الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٦م) ابو الفتوح على بن الحسين بن محمد المرواني الأموي القرشي : كتاب الأغاني، ط. دار الكتب المصرية، طبعة اخرى في بولاق .

البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) ابو الحسن أحمد بن يحي بن جابر البغدادي: فتوح البلدان، نشر صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦، ق ١-٢

ابن العبري (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) اغريغوريوس ابي الفرج الملطي بن آهرون : تاريخ مختصر الدول، ط. الآب بيدجان (نصوص سريانية مترجمة بالعربية وردت بمجلة المشرق، ط. بيروت ١٩٠٣م (السنة السادسة) النص العربي طبع في بيروت ١٩٥٨م .

ابن الفقيه (ت آواخر القرن ٣هـ/ آواخر القرن ٩م) أبو بكر احمد بن محمد الهمذاني : كتاب البلدان ، ط. ليدن ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م .

المقدسي (عاش في القرن ٤هـ / القرن ١٠م) شمس الدين ابو عبد الله المعروف بالبشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط. ٢ (ليدن - بريل) ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م .

المسعودي (ت ٣٤٦ هـ / ١٩٥٧م) أبو الحسن على بن الحسن بن علي : التنبيه والاشراف، ط. ليدن - بريل ١٣١١ هـ / ١٨٩٣م .

خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤م) خليفة بن خياط العصفري : تاريخ خليفة بن خياط ، حققه سهيل زكار ، مجلدان (ط. دمشق ١٩٦٨م)

الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م) محمد بن احمد بن أبي الفيض مرتضى الحسيني : تاج العروس من شرح جواهر القاموس، ط. الخيرية بالقاهره عام ١٣٠٦هـ .

النويري (ت ٦٧٧ هـ / ٧٣٣م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢١ (تحقيق على محمد البجاوي) ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٦م .

ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي: معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر في كل مكان ، ط. ليبزج (١٨٦٦ – ١٨٨٩م) ستة مجلدات .

المعجم الوجيز نشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠م .

- Anonymi,
Chronique civile Auctet eclestiaticum Anonymi Auctoris, edidit par Rahmani (E.), Sharfé, Liban 1904 .

- Cedrenus (G.),
Historiarum Compen .lium, in p. C.C.S., Paris 1864 - 1894) To I.

- Michicl Le Syrien,
chronique du Michiel le syrien, Text syrique, trad. par J. B. chabot , Paris 1899 - 1908, 3 Tomes (To. II 1903) .

- Theophanes,
The chronicle of Theophanes, trans by. .-arry Turtledove, university of pennsylvania 1982.

- Theophanes continuatus,
Historia, in P.C.C.S G, ed. Bonnae, Paris 1863 .

- William of Tyre ,
A History of the deeds done beyond the sea, trans. by Babcock & Krey, New York 1943, 2 volumes .

ثالثاً : المراجع الثانوية العربية

د. أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والاندلس، اسكندرية ١٩٧٥م .

د. السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، اسكندرية ١٩٦٦م .

انستاس ماري الكرملي : المرده او الجراجمة، مقال مجلة المشرق (السنة السادسة) ط. بيروت ١٩٠٣م .

د. جوزيف نسيم يوسف: دراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. اسكندرية ١٩٨٣م .

حسن عميد : سرهنك عميد ، قاموس فارسي ، ط. طهران ١٣٦٢ (هـ . ش)

د.علي حسني الخربوطلي: المختار الثقفي : مرآة العصر الاموي، سلسله أعلام العرب (عدد رقم ١٦) ط. المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٢م .

عبد الرحمن عبد الغني : أرمينية وعلاقاتها السياسية بكل من البيزنطيين والمسلمين (٦٥٣-١٠٦٤م/ ٣٣-٤٥٧هـ) ، رسالة دكتوراه بكلية آداب الاسكندرية عام ١٩٨٣م .

عمر فروخ : تاريخ صدر الاسلام والدوله الأموية ط. بيروت ١٩٧٢م .

طنوس الشدياق : أخبار الأعيان في جبل لبنان ، نشر د. فؤاد افرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧١ (ج٢) .

هنري لامنس : تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار، مجلة المشرق ط. بيروت ١٩٠٣م (السنة السادسة) .

يوسف الدبس : ليس الجراجمة المرده، بمجلة المشرق (ط. بيروت ١٩٠٣) السنة السادسة .

- Devress (E.), La patriarchate d' Antioche, Paris 1945 .

-Grousset (R.),
Histoire de L'Armenie des ongins à 1071, Paris 1947.

- Ismail (Adel) ,
Histoire du Liban du XVII a nos jours, Paris 1955.

- Strange (G.),
Palestine under the Moslems, Beirut 1965 .

- Lammense (E.),
Études sur la régne du calife omyad Mo'awia , in M. F. O., Paris 1906, To. I.

- Rohricht(R.),
Geschichte des konigreichs Jerusalem, Innsbruck 1898.

- spinka (U.),
Effect of crusades upon eastern Christianity in " I nvironmental Factors in christianity history" .